فكيف أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس خير أمة ؟

لقد كان القرآن الكريم منذ العهد المكي يوضح للإنسان هويته الحقيقية الصادقة وهوية مجتمعه بل وهوية الكون الذي يتعامل معه.

يقول شهيد الإسلام سيد قطب [معالم في الطريق، ص 25]:

« لقد كان القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله. كان يقول له: من هو ؟ ومن أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف ؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول ؟ من ذا الذي يذهب به ؟ وما مصيره هناك ؟ كان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه والذي يحس أن وراءه غيبًا يستشرفه ولا يراه ؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار ؟

كان يقول له كذلك كيف يتعامل مع خالق هذا الكون ومع الكون أيضًا كما يبين له: كيف يتعامل العباد مع العباد ؟ ». أ هـ.

ولقد أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أمة ـ بل خير أمة ـ من خلال:

1 – **هوية واحدة متميزة**: فقد عصم رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول لدعوته هوية هذه الأمة أن تمتزج أو تشترك مع غيرها من محاور الاستقطاب وعناصر الجذب رغم وجود الدواعي الملحة والظروف المهيئة لتلك المحاور أن تستقطب الناس، بأن أوضح للناس منذ الوهلة الأولى أنه جاءهم ليعبدوا الله وحده لا شريك له، وفهموا هم ذلك عنه حتى قال قائلهم مستنكرًا: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص، الآية: 5].

ويؤكد هذا المعنى شهيد الإسلام سيد قطب [معالم في الطريق، ص 27] ـ عند كلامه عن أحوال العرب عند مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبداية دعوته لهم ـ بأن أخصب بلادهم وأغناها في يد غيرهم من الأجناس فلم يُثرها صلى الله عليه وسلم دعوة إلى القومية العربية تستهدف تجميع قبائل العرب لاستخلاص أرضهم من المغتصبين. كما يخبر ـ رحمه الله ـ أن المجتمع العربي كان كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعًا للثروة وتحقيقًا للعدالة... قلة قليلة تملك المال والتجارة والترف وتتعامل بالربا فتتضاعف تجارتها ومالها... وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع، فلم يُثرها رسول الله صلى الله عليه وسلم راية اجتماعية ليجمع حوله الغالبية العظمى من الناس في وجه طغيان المال والشرف والجاه.

كما يحكي ـ رحمه الله ـ أن المستوى الأخلاقي في جزيرة العرب كان في الدرك الأسفل في جوانب منه شتى. فقد كان التظالم فاشيًا في المجتمع وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية بل من مفاخره. وكانت الدعارة في ـ صور شتى ـ من معالم هذا المجتمع. ورغم ذلك فلم يعلنها صلى الله عليه وسلم دعوة إصلاحية تتناول تطهير الأخلاق وتطهير المجتمع وتزكية النفوس. وكان في إمكانه صلى الله عليه وسلم ـ وقد أعاذه الله ـ إن سار في أي من هذه الدعوات إلى القومية العربية أو العدالة الاجتماعية أو الإصلاح الأخلاقي ألا يلقى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم من المعارضة والعنت والصعوبات التي واجهتهم.. ثم بعد أن يجتمع الناس حول أي من هذه الرايات، يعلنها دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وقد تبعه الناس وسمعوا له فأحرى أن يتبعوه في ذلك ويسمعوا له، ولكن الله سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ـ لم يوجه رسوله صلى الله عليه وسلم هذا التوجيه، إنما وجهه سبحانه إلى أن يصدع بـ «لا إله إلا الله» وأن يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء...

بل وأعلنها صلى الله عليه وسلم راية ربانية تقوم على تعبيد الناس لربهم منذ اليوم الأول لدعوته... وإن كان استرداد الأرض من مغتصبيها والعدالة الإجتماعية وغيرها من أنواع العدل، والإصلاح الأخلاقي وغيره من الإصلاحات هو من مقاصد هذا الدين...

﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: 108].

2- فبعد أن حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة هويتها الإسلامية التي يجتمع حولها المسلمون، وقرر أنهم أمة واحدة من دون الناس جرّد هذه الهوية من الالتباسات التي يمكن أن تحدث من تبني القضايا الرائجة عند الناس وقت الدعوة، التي يشاركه فيها غيره من غير أهل دعوته من دعاة الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي والتحرر السياسي، أو غيرها من القضايا التي ربما لا تكون رائجة وقت الدعوة ولكن من شأنها ـ إذا طرحت حسب الظروف السياسية والاجتماعية السائدة في وقت الدعوة ـ أن تجد مساندة من قوى كثيرة يهمها تحقيق هذا البرنامج الإصلاحي أو ذاك، وإن كانت مخالفة في الهوية والعقيدة وسائر التوجيهات لصاحب الدعوة وكذلك يكون من شأنها أن تجد قبولاً سريعاً لدى الناس لحاجتهم الماسة إليها لفرط معانتهم من التفسخ الأخلاقي والفوارق الطبقية والظلم الاجتماعي أو احتلال جزء من أراضيهم من قبل آخرين من غير جلدتهم وفرض التبعية عليهم.

وبتجريده صلى الله عليه وسلم الهوية من كل هذه الالتباسات ـ التي يصعب على صاحب الدعوة تجنبها ما لم يكن مستنًا بالهدى ـ امتنع أن يصير الإسلام بعد ذلك ـ مقوما من مقومات هويات أخرى عربية أو فارسية أو تركية، اجتماعية

أو سياسية، وامتنع أن يتعدد الإسلام بتعدد الالتباسات (من إسلام صحراوي وآخر ريفي وثالث صناعي أو إسلام اجتماعي وآخر فردي أو إسلام اشتراكي وآخر ليبرالي أو إسلام تركي وآخر مصري وثالث عربي... ورابع بربري... وآسيوي أو أوربي وشمالي أو جنوبي) بتعدد الشرعيات والحضارات المقبولة في الدين !!!

وامتنع أن يصير الإسلام فصيلاً من فصائل الإصلاح الأخلاقي أو الاجتماعي أو السياسي في الأمة العربية أو غيرها من الأمم وتحققت للإسلام هويته الواحدة المستقلة عن غيرها، وأصبح للإسلام بذلك أمته الواحدة المتميزة عن غيرها من الأمم، فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك شرعية التعدد في الهويات بامتزاج الهوية الإسلامية بغيرها من خارجها **وأصبح للإسلام هوية واحدة متميزة هي: « الاجتماع على الإسلام والانتساب إلى الشرع »** [راجع كتاب الاعتصام للشاطبي] ، **وهي شرعية واحدة لا تتعدد تقوم عليها أمة واحدة لا تتعدد ولا تتفرق بدعاوى الجاهلية.**

3- كما أنه صلى الله عليه وسلم أقام الهويـة على التوحيـد الخالـص من إفـراد الله سبحانـه وتعالى بالنسك والحكم والولاء ـ بعد إفراده تبارك وتعالى بالربوبية ـ بقول الله جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:162].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِّ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ [الأنعام: 114].

وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِّ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ [الأنعام:14].

وقوله جل وعلا: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِّ أَبْغِي رَبّاً الآية ﴾ [الأنعام: 164].

وبذلك أسقط شرعية أي وضع يقوم على التمرد على سلطان الله ـ عز وجل ـ بإشراك غيره معه في الولاء أو الحكم أو النسك أو الربوبية، وبذلك لا يكون لأي وضع علماني أو قومي ـ يقوم على أساس الاجتماع **على غير الإسلام والانتساب إلى غير الشرع ـ شرعية إسلامية يستند إليها بدعوى أن القائمين عليه مسلمون !!..**

4 – كما أنه صلى الله عليه وسلم أسقط شرعية الافتراق الديني والدنيوي بقوله صلى الله عليه وسلم:

«**وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة**»، قالوا ومن هي يا رسول الله ؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**». وفي رواية: «**الجماعة**» (1).

وبذلك أبطل صلى الله عليه وسلم تعدد الهويات من داخل الدين كما أبطلها من خارجه.

5– تحقيق مشاركة الأمة له صلى الله عليه وسلم في إدارة شئونها وحكمها وذلك من خلال الأطر المختلفة كمشاركة السعود – **الفرق بين النقباء والسعود أن النقباء يمثلونه صلى الله عليه وسلم عند الأمة والسعود يمثلون الأمة عنده** – الخمسة بوصفهم ممثلين عن أحياء الأنصار، وأبو بكر وعمر بوصفهما ممثلين عن المهاجرين ومشاركة غيرهم من ممثلي القبائل.

روى البزار والطبراني عن أبي هريرة: أتى الحارثُ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد ناصفنا تمر المدينة وإلا ملأناها عليك خيلاً ورجالاً قال: « **لا حتى أستأمر السعود** » ، فكلهم قالوا: والله ما أعطينا الدنية في أنفسنا في الجاهلية فكيف وقد جاء الإسلام، فأخبر الحارث فقال: غدرت يا محمد.

واستشارهم في (أُحُد) بعد أن أخبرهم برؤياه التي تُنبئ بأن المدينة درع حصين ويعرض لهم رأيه أنهم لا يخرجون من المدينة وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمقامهم أقاموا بشر مقام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة

قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ـ وكان هذا هو الرأي ـ ولكن أشار عليه الكثير من المسلمين بخلاف ذلك فاستجاب لرأيهم. [الرحيق المختوم ص241].

كما استشارهم صلى الله عليه وسلم في بدر فأشاروا عليه بمجالدة المشركين وقالوا كلمتهم المشهورة: « والله لئن استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك » [الرحيق المختوم ص199].

وتعلم أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ منه صلى الله عليه وسلم هذا الأمر. يروي لنا التاريخ في غزوة مؤتة ما فعل أصحابه صلى الله عليه وسلم حين واجهوا ـ وهم ثلاثة آلاف مقاتل ـ جيشًا قوامه مائتا ألف فجعلوا يتشاورون حتى شجعهم عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ بقوله: انطلقوا فإنما هي إحدى الحسنين: إما ظهور وإما شهادة، فاستقر الرأي إلى ما دعا إليه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه [المصدر السابق، ص 375-376.].

فقد كان صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى، الآية: 38].

- فبذلك حقق رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاركة الأمة له من خلال ممثليها عن أطرها المختلفة التي أبقى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وسواء كانت أطر ولاءات خاصة أو أطر عمل إسلامي ولكن داخل ولاء الإسلام العام وعقيدته الواحدة وشريعته الواحدة وهويته الواحدة سواء كانت الأطر عرقية أوظائف شرعية أو مصالح مشتركة. فالمهاجرين والأنصار مثال لأطر الوظائف الشرعية، وغفار وأسلم وجهينة أمثلة لأطر قبليات عرقية ورحم.

وتروي لنا السيرة قبيل فتح مكة كيف كان تشكيل جيش المسلمين الفاتح يقول العباس في حديثه عن فتح مكة وإسلام أبى سفيان: فلما ذهب لينصرف (أي أبو سفيان) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل ـ حتى تمر به جنود الله فيراها »، قال: فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه، قال: ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه ؟ فأقول: سليم فيقول ما لي ولسليم؟ ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ومزينة ؟ حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم قال ما لي ولبني فلان، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء.

قال ابن إسحاق: فيها المهاجرون والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ ولا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء !! قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً !!، قال قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال فنعم إذن[زاد المعاد في هدى خير العباد، جـ2، ص 182، ومختصر سيرة ابن هشام].

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: « من سيدكم يا بني سلمة ؟ » قالوا: الجد بن القيس على أنا نبخله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « وأي داء أدوأ من البخل، ولكن الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور ».

وفيه أيضاً عن أبي سعيد الخدري: أن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليه فجاء فقال: « قوموا إلي سيدكم » أو قال: « خيركم »، فقعد عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « هؤلاء نزلوا على حكمك ». قال: فإني أحكم بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم فقال: « حكمت بما حكم به الملك ».

وفي رواية أحمد عن عائشة رضي الله عنها: « قوموا إلي سيدكم »، فأنزلوه، فقال عمر: سيدنا الله عز وجل، قال: « أنزلوه »، فأنزلوه.[الفتح جـ7 ص476، وذكر الحافظ أنه حسن جـ 2 ص53].

وأما نموذج أطر المصالح المشتركة: فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن أسماء بنت يزيد الأنصارية ـ رضي الله عنها ـ أتت إلي النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت: يا رسول الله إني وافدة النساء إليك، إن الله بعثك بالحق للرجال والنساء، فآمنا بك واتبعناك، وإنا ـ معشر النساء ـ محصورات، قواعد بيوتكم، مقتضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وأنتم ـ معشر الرجال ـ فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهادة الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن الرجل إذا خرج حاجًا أو معتمرًا أو مرابطًا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في هذا الخير والأجر يا رسول الله ؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم بوجهه كله إلى أصحابه ثم قال: « هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها؟» فقالوا يا رسول الله، ما ظننا امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت النبي إليها ثم قال: « انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن طاعة الزوج ـ اعترافًا بحقه ـ يعدل ذلك كله، وقليل منكن من يفعله ».

وأيضًا فيما يرويه ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: « لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء. [الرحيق المختوم].

وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه فدخل عليه سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال: « فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ». فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله، وأثنى، ثم قال: « يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتاكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله. وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ » قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال صلى الله عليه وسلم: « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدّقتم آتيتنا مكذبًا فصدقناك ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار ». فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا... ». أ هـ.

ولابد في كل هذا أن يتقدم الولاء العام للإسلام والمسلمين عامة على الولاء الخاص للإطار الذي ينتمي إليه المسلم أو يُقْطع هذا الولاء الخاص ولا يتقدم إذا تعارض مع الولاء العام ولم يكن خادمًا له.

وبالإبقاء على التعدد عمق المشاركة وبتعميق المشاركة يتعمق الانتماء ولا توجد أي درجة من الاغتراب.

7- حقق صلى الله عليه وسلم التوازن بين الفرد والجماعة فقد ربَّى صلى الله عليه وسلم أصحابه على روح الفريق لا روح القطيع، ولا روح التشرذم والتدابر والتنازع والاختلاف:

روح الفريق في قوله: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

يقول الإمام ابن كثير: « يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي »[تفسير القرآن العظيم جـ2 ص 495-496].

فالبصيرة واليقين والبرهان أولى سمات روح الفريق التي يتربى عليها الأفراد ويذم الله ـ تبارك وتعالى ـ أناسًا فقدوا البصيرة وتربوا على روح القطيع فيقول جل وعلا:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 171] ، فلا يكون المسلم كالهمج الرعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يركنوا إلى ركن وثيق.

وينهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فيقول:

« لا يكن أحدكم إمّعة يقول: أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » [الترمذي، رقم 62]. حتى يكون المسلم أهلاً لما وصفه به صلى الله عليه وسلم: « يسعي بذمتهم أدناهم ».

وقد تحقق هذا في القرن النبوي حتى أجارت امرأة من المسلمين وأقرها صلى الله عليه وسلم بقوله: « أجرنا من أجرت يا أم هانئ »[الرحيق المختوم، ص 393].

وقد بعث صلى الله عليه وسلم معاذًا إلى اليمن فسأله: « كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ » قال بكتاب الله، قال : « فإن لم تجد »، قال: فبسنة رسول الله، قال: « فإن لم تجد ؟ » قال: أجتهد رأيي ولا آلو[مسند أحمد: جـ5، ص242]. فهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه يجتهد رأيه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في مسألة الأسارى يقول فيها برأي خلافًا لرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه ويُقِرُّه القرآن الكريم على رأيه [الرحيق المختوم، ص219]، ﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: 68].

وحتى صبيان المسلمين ـ فضلاً عن كبارهم ـ يتربون على ذلك فهذا الصبي: عبد الله بن الزبير يلعب مع الصبيان في الطريق فيمر بهم عمر رضي الله عنه فيفر الصبيان هيبة من عمر إلا ابن الزبير فيسأله عمر رضي الله عنه: لِمَ لَمْ تهرب مع الصبيان ؟ فيقول الصبي كلمته التي حفظها له التاريخ: « لست جانيًا فأفر منك، وليس في الطريق ضيق فأوسع لك » [عبد الله ناصح علوان: تربية الأولاد في الإسلام، جـ1 ص304-305].

فأخذت شخصية كل فرد من أصحابه صلى الله عليه وسلم مساحتها في النمو دون عناصر ضاغطة عليها من الخارج تؤدي إلي ضمور عناصر هذه الشخصية أو تلف خامتها البشرية أو كونها شخصية تعتمد على التلقين والإيحاء والتقليد دون بصيرة، ورغم الفارق الضخم جداً بين شخصيته صلى الله عليه وسلم وبين شخصيات أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ بل والناس كافة لم تضمر شخصياتهم إلى جواره بل تُوفي صلى الله عليه وسلم وقد ترك معجزة عظمى من معجزاته صلى الله عليه وسلم أصحابه نجومًا يُهتدى بهم ويُسترشد. فلم يُحدث فراغًا بموته صلى الله عليه وسلم بل ترك السماء مليئة بالنجوم.

نمو شخصية الفرد واستقلاليتها إذن أمر ضروري... ولكن بعيدًا عن روح التشرذم والتدابر والتنازع والاختلاف.

روى الإمام أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: وأُمرنا أن نغير على حي من بني كنانة إلى جنب جهينة وأغرنا عليهم وكانوا كثيرًا فلجأنا إلى جهينة فمنعونا وقالوا: لِمَ تقاتلون في الشهر الحرام ؟ فقلنا: إنما نقاتل من أخرجنا من البلد الحرام في الشهر الحرام، فقال بعضنا لبعض: ما ترون ؟ فقال بعضنا: نأتي نبي الله صلى الله عليه وسلم فنخبره. وقال قوم: لا بل نقيم. وقلت أنا في أناس من أصحابي: لا بل نأتي عير قريش فنقتطعها، فانطلقنا إلى العير وكان الفيء إذ ذاك من أخذ شيئًا فهو له، فانطلقنا إلى العير وانطلق أصحابنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه الخبر.. فقام غضبانًا محمر الوجه فقال: « أذهبتم من عندي جميعًا وجئتم متفرقين ؟ إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة، لآبعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم، أصبركم على الجوع والعطش »، فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي فكان أول أمير في الإسلام.

ويوصي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن:

« تطاوعا ولا تختلفا » [البخاري: جـ4، ص 79].

– صبغ صلى الله عليه وسلم الأمة بصبغة الإسلام وأقام التماسك الاجتماعي على أساس التمسك الفردي بالقيم:

ولأهمية الصبغة الإسلامية وتزكية الفرد بتمسكه بالقيم الإسلامية يدعو خليل الرحمن ربه تبارك وتعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 129].

فكانت تزكيتهم بطاعة الله عز وجل وإخلاصهم له وتطهيرهم من الدنايا، فاستجاب الله تعالى له وامتن على المؤمنين بذلك فقال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

فكانت تزكيتهم مقدمة في امتنان الله عليهم على تعليمهم الكتاب والحكمة فقد كان القرآن ينزل مقرراً للقيم الأخلاقية ومربياً لهذه الصفوة التي استجابت لربها على تلك القيم: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [الإسراء: 106].

كما كانت هذه العصبة مقتدية برسولها صلى الله عليه وسلم الذي كان خُلُقه القرآن، وتقص علينا السيرة بعضًا من تلك القيم الكلية التي استقرت في نفوس المسلمين الأوائل على لسان جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مخاطبًا النجاشي ومخبرًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا

من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وأمنا به واتبعناه على ما جاءنا من دين الله »[الرحيق المختوم ص 90].

فمجمـوعة القيم الإسلامية التي قال الله عز وجل عنها: ﴿ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 161] ، ترفع من فاعليات الفرد وروحه المعنوية وتعمق من إسهاماته في مجتمعه وتفاعله مع بيئته وتجعله فردًا متماسكًا: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: 170] ، لا متهوكًا ولا حيرانًا، فلا تتفرق النفس داخل كيان الفرد مشدودة إلى أهواء شتى تتجاذبها أو تمزقها: ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ [الأنعام: 71].

بل كما قال صلى الله عليه وسلم: « لقد جئتكم بها بيضاء نقية » [مسند أحمد جـ 3، ص 387] ، وقوله صلى الله عليه وسلم: « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك »[اتحاف المهرةٍ، جـ 1 ص 182].

وهذه القيم إنما صبغت الأمة بصبغة الإسلام وأدت إلى استقامة سلوك الفرد من خلال ربط التوجيه بالحدث والعلم بالعمل والتلقي للتنفيذ من خلال شمولية التوجيه الرباني على أساس خُلُق بشري نظيف، فقد اختار الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أصحابه من خيار الناس في الجاهلية فهو ـ سبحانه ـ كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته ـ أعلم بمن هو مستحق للهداية وصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» [مسلم جـ4، ص598].

9- حافظ صلى الله عليه وسلم على التأصيل من خلال خطاب شديد التأثير على الوجدان:

فكتاب الله تبارك وتعالى يجمع بين وصفين أنه فرقان فرّق الله سبحانه به بين الحق والباطل، أحكمه الله سبحانه وتعالى وفصل آياته حتى قال تعالى في وصفه ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: 89].

والوصف الثاني هو تأثيره الشديد على الوجدان، قال تعالى: ﴿ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: 23].

وقال جلَّ وعلا: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ترك أمة من شدة توضيحه الحق لهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها. ويقول أبو ذر رضي الله عنه: « ولقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا »[تفسير القرآن العظيم، جـ 2، ص 131].

كما كان صلى الله عليه وسلم يعظهم حتى تذرف عيونهم ويخشع قلوبهم ويخطبهم كأنما ينذرهم جيشًا مصبحهم وممسيهم... فلبى صلى الله عليه وسلم فيهم قوة الشعور الديني مع قوة البصيرة الدينية التي تعطي مفاهيم صحيحة لا تسمح بدعاوى الجاهلية من روابط العرق وتخوم الأرض ولا بفصل الدين عن الدولة في أية صورة من الصور، ولا في أي عصر من العصور(2).

أي أنه خاطب العقل و الوجدان معاً فسلم أصحابه رضي الله عنهم من ضلال العُبَّاد الذي سببه الجهل، وضلال العلماء الذي سببه قسوة القلب وجفاف الروح (3).

قال تعالى معلما عباده كيف يدعونه: ﴿ اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: 6 – 7].

المغضوب عليهم: هم من تركوا العمل بالحق بعد علمه.

والضالون: هم من جهلوا الحق فعملوا بخلافه.

10- حقق التوازن بين الترسيخ الرأسي والانتشار الأفقي:

حقق صلى الله عليه وسلم التوازن بين الترسيخ الرأسي بالدعوة والتربية والانتشار الأفقي بإزالة العوائق وفتح الطريق أمام الدعوة بالجهاد فلا يتسع نطاق الأمة أكثر من طاقة استيعاب الصفوة ولتغيير الواقع بقوة البرهان وقوة السلطان بأمة تربت على الحق تدفع عنه الباطل، وبشوكة يزع الله بها ما لا يزع بالقرآن (4)، فحقق مشاركة الأمة في الدفع والتغيير ومشاركتهـــا في السلطـــة بعـد التمكـــين: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [البقرة: 251]، ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ [الحج: 40].

وهكذا أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال هذه المرتكزات خير أمة أخرجت للناس استطاعت أن تصمد في وجه المرتدين عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل وتمكنت بعد ذلك من هزيمة البيزنطيين في فلسطين والانتصار علي الفرس في القادسية وفتح مصر علي يد عمرو بن العاص و القضاء علي الدولة الساسانية وفتح

أرمينيا وجورجيا والانتصار على الأسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري، كل هذه الملاحم التي توشح صدر الإسلام في فجره، وقعت فيما بين التحاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى وحتى مقتل عثمان وتولي علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. [الدكتور أحمد القديري: «الإسلام وصراع الحضارات» كتاب الأمة رقم (44)، ص 64].

في كل هذا، كان الإسلام هو هوية هذه الأمة ومحور استقطابها الذي صنعها أمة عظمى من قبائل متفرقة متناحرة يحكمها في أفضل بلادها ولاة من قبل فارس والروم. ونرى أثر ذلك عندما كان الإسلام هوية الأمة، فقد كان الفرد المسلم من عامة الأمة لا يرى في غير الإسلام سبباً للتجمع بل يرى أنه وحده أساس الانتماء وأنه وحده رابطة الولاء، ولذلك لم تكن لديه قابلية للشعور بالغضاضة في أن يعيش على أرضه ـ بل ويحكمه ـ مسلم من بلد آخر فصفة الإسلام تَجُبُّ ما عداها ورابطة الدين تُغني عما سواه.

ويقص علينا التاريخ أن المسلم كان يخرج من طنجة حتى ينتهي به المطاف إلى بغداد لا يحمل معه جنسية قومية أو هوية وطنية وإنما يحمل شعاراً إسلامياً هو كلمة التوحيد، فكلما حل أرضاً وجد له فيها أخوة في الإيمان وإن كانت الألسنة مختلفة والألوان متباينة لأن الإسلام أذاب كل تلك الفوارق واعتبرها من شعارات الجاهلية.

كما يحكي لنا كيف سار ابن بطوطة من شاطئ المحيط الأطلسي إلى شاطئ المحيط الهادي ولم يُعتبر في أي قطر مر به أجنبيًا بل وأتيحت له الفرصة حيث حل أن يصبح قاضيًا أو وزيرًا أو سفيرًا ولم يُراقب في حركاته وسكناته ولم يسأله أحد عن هويته أو جنسيته أو مهنته أو وطنه، فقد كان أفراد الأمة في تحركهم من بلد إلى بلد آخر من بلاد الإسلام

لا يحتاجون إلى تأشيرات دخول أو خروج لأن الإسلام بلْوَر هويتهم الحقيقة ومنحهم الجنسية الإيمانية وزودهم بروح الأخوة والمودة [محمد محمد البدري، الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة ص 52-53].

وكانت الأمة تقاوم الغزو الغربي الصليبي مقاومة إسلامية وتنظر إليه على أنه غزو من قبل الكفار لبلاد الإسلام تنبغي مجاهدته وإزالته وتقاوم ما وسعتها المقاومة عملية تنحية الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية محلها على أساس أن هذا كفر يخرج من الملة إذا رضيت به.

فإن المصريين حين قاتلوا الحملة الفرنسية لم يقاتلوها بوصفهم مصريين إزاء فرنسيين ولكن بوصفهم مسلمين يقاتلون الكفار، وقد كان علماء الدين هم قادة هذه المقاومة، ولذا انصب غضب نابليون على الأزهر بوصفه عنصر المقاومة للغزو الصليبي.

وتأتي قمة الدلالة في كون سليمان الحلبي الذي قتل كليبر لم يكن مصريًا بل مسلمًا دفعه إسلامه إلى قتل قائد الحملة الصليبية الموجهة إلى أرض الإسلام.

وقد أدرك أعداء هذه الأمة هويتها مما جعلهم يتزلفون إليها بادعاء الإسلام أو المحبة لأهله كما فعل نابليون عند دخوله مصر.

---

(1)والافتراق المقصود في الحديث ليس هو الافتراق في المسائل الاجتهادية فهذا واقع حتى في القرون المفضلة، الثلاثة الأولى. ولكن الافتراق الذي قال الله تعالى عنه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ* مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ **[الروم: 30-31]. الافتراق الذي صاروا به شيعاً أي جماعات بعضهم قد فارق البعض**

ليسوا على تآلف ولا تعاضد ولا تناصر بل على ضد ذلك.وهذه الفرقة مشعرة بتفرق القلوب المشعر بالعداوة والبغضاء ولذلك قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: 103] فبين أن التآلف إنما يحصل عند الائتلاف على التعلق بمعني واحد، وأما إذا تعلقت كل شيعة بحبل غير ما تعلقت به الأخرى فلابد من التفرق وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153]. والافتراق إما أن يكون راجعاً إلى أمر هو معصية غير بدعة ومثاله أن يقع بين أهل الإسلام افتراق بسبب دنيوي كما يختلف مثلاً أهل قرية مع قرية أخرى بسبب تعد في مال أو دم حتى يقع بينهم العداوة فيصيروا حزبين أو يختلفون في تقديم وال أو غير ذلك فيفترقون، ومثل هذا محتمل، وإما أن يرجع إلى أمر هو بدعة كما افترق خوارج من الأمة ببدعهم التي بنوا عليها الفرقة. كتاب: "الاعتصام" جـ 2، ص 191- 192.

(2) إن فصل الدين عن الدولة ليس ظاهرة حديثة، إنما هو سمة من سمات الجاهلة في أغلب العصور، يقول الله عز وجل على لسان قوم شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: 87].

(3) المنهج من شأنه إذا اتبع أن يمنع الضلال.

(4) حدثنا أبو غسان المسمعي وابن مثنى قالا: حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: « ألا إن ربي أمرني، أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلي أهل الأرض، فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان، إن الله

أمرني أن أحرق قريشًا، فقلت رب إذاً يثلغوا رأسي، فيدعوه خبزة قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشًا == نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط، متصدق، موفق، ورجل رحيم، رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له، الذين هم فيكم تبعًا، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفي له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل ـ أو الكذب والشنظير الفحاش ». (رواه الإمام مسلم: حديث خلقت عبادي كلهم حنفاء).